

مقومات الحضارة العربية

للمركنور سليمان هزيم

لكل حضارة من الحضارات الكبرى في تاريخ البشر مقوماتها وأسسها التي تقوم عليها وتستند إليها . وحضارة العرب هي إحدى الحضارات الكبرى التي ظهرت في التاريخ، وعاشت فترة طويلة من الزمن ، وأثرت في غيرها من الحضارات . بل إن بعض مظاهر الحضارة العربية ، لا سيما في ميدان الثقافة والروح ، قد عاش وبقى على الأيام أطول مما عاش غيره من ألوان الفكر والثقافة التي ظهرت في جهات أخرى من العالم . ومن المظاهر الخالدة في ثقافة العرب لغتهم التي عاشت وأنتجت أدبا قام بذاته وعبر به أصحابه عن معاني الحياة ومشاعرها خلال فترة تقارب الستة عشر قرنا ، وهو ما امتازت به اللغة العربية على كثير من اللغات القديمة والحديثة ، فاللغة اللاتينية مثلا إنما عاشت بضعة قرون ، مات بعدها كلغة يتكلم بها الناس ويعبرون عن مشاعرهم ، ولم تبق إلا كلغة تدرس في الكتب . واللغات الأوروبية الحديثة كلها لا يكاد يجاوز أطولها عمرا ، كلغة حياة وأدب ، ألف عام أو نحو ذلك . أما اللغة العربية فقد عاشت وأنتجت أدبا فهمته الأجيال المتعاقبة وتذوقته رغم بعد الشقة في الزمن . ونحن الآن لا نزال نقرأ الأدب الجاهلي ونمتع لقراءته كما لا نزال نقرأ القرآن وبأخذنا سحره . وهذا ما يميز تراثنا الثقافي عن تراث كثير غيرنا من الأمم والشعوب .

وما يقال عن اللغة العربية يقال عن غيرها من نظم العرب الاجتماعية ، وما خلفوه من تراث حضاري عام . فقد بقي كله وخلد ، ولا بد لبقائه من سبب أو أسباب كانت من دعائم قوته ومقومات حياته . وقد يكون من المفيد في هذا الحديث أن نستعرض بعض تلك الدعائم والمقومات ، استعراضاً يهدف إلى تبسيط الحقائق التي وصلت إليها دراستنا الحديثة للعرب وحضارتهم ، أكثر مما يقصد إلى التعمق في تفصيلات تاريخ الحضارة العربية .

وأول ما نلاحظه على حضارة العرب أنها حضارة أصيلة في البيئة العربية ، قد تأثرت بظروف مهدها إلى أبعد الحدود . فهي إذن ليست حضارة دخيلة ولا منقولة وإن كانت قد تأثرت بغيرها من الحضارات المجاورة . وقد كان ارتباط الحضارة العربية بالبيئة الجغرافية لبلاد العرب سبباً من أسباب قوتها واستمرارها على الزمن . ولكن الشيء المهم أن البيئة العربية

ليست كلها صحراء كما قد تتصور ، وإنما فيها البادية وفيها الحضر ، وفيها النجاد الداخلية والسهول الساحلية ، وفيها العيون وفيها الأودية وبحارى الأنهار ، وبعض جهاتها كالربع الخالى وصحراء النفود مقفر مجذب شديد الجفاف ، وبعضها الآخر كبلاد اليمن غنى التربة غزير الأمطار يشبه الجهات الموسمية ، ثم إن جنوب بلاد العرب على الجملة تسقط أمطاره فى الصيف أى فى موسم الحرارة ، على حين تسقط أمطار شمالها فى الشتاء ، أى فى فصل البرودة . لذلك كله فإن البيئة العربية كانت بيئة متنوعة أو هى بعبارة أصح وأدق تجمع بين الوحدة والتنوع : الوحدة من حيث الموقع الجغرافى العام والبيئة الصحراوية الحارة على الجملة ؛ والتنوع من حيث الاختلافات الإقليمية والمحلية . وقد انعكست الصورة الجغرافية فى حضارة العرب وثقافتهم . فهى وإن كانت ذات طابع عربى عام ، فإنها مع ذلك تتسم بصفات محلية متنوعة . فهناك عرب الجنوب وعرب الشمال أو قحطان وعدنان ، وهناك أعراب البادية ، وأبناء الحضر . بل هناك فى شمال الجزيرة أرض العراق وأرض الشام ، ثم هناك أحداة الإبل الذين يعيشون على اليابس ويعملون فى النقل على طول طرق القوافل ، وهناك العرب الملاحون الذين ورثوا الفينيقيين على سواحل البحر المتوسط وورثوا الملاحين القدماء فى الخليج الفارسى وبحر العرب . إلى غير ذلك من مظاهر التنوع التى كانت فى حد ذاتها مصدراً من مصادر القوة ، وعنصراً من عناصر اتساع الأفق وتفتح مجال الفرص فى حياة العرب وحضارتهم . ولولا ذلك التنوع الذى كان مرده إلى البيئة العربية ما كانت الحضارة العرب تلك القدرة المعجبية على أن تجارى الزمن وتجارى الظروف ، ولا كانت لها تلك الحيوية التى ميزتها عن غيرها من الحضارات .

وليس معنى التنوع فى البيئة العربية وفى تكوين العرب أنهم كانوا مجرد جماعات اختلط بعضها ببعض ، وإنما معناه الصحيح أنهم كانوا جماعة ذات مواهب متنوعة ، وحيوية استطاعت على الدوام أن تجد مجالها فى العمل والنشاط وبناء الحضارة مهما اختلفت الميادين ومهما تباينت الظروف . . . وذلك كله أمر صحيح يسلم به من يدرسون تاريخ العرب والحضارة العربية .

ولقد خرج العرب من بيئتهم إلى البيئات المجاورة واحتكوا بأهلها ، ونقلوا عنهم ما نقلوا كما منحهم وأعطاهم من نتاج بيئتهم العربية ما ساعد على تراوج الفكر والحضارة فى العالم القديم تراوجاً كانت له أطيب الثمرات . وكان ذلك على الأخص بعد ظهور الإسلام وانتشاره إلى الشرق والغرب وعلى طول طرق التجارة البرية والبحرية .

بل إن تجار العرب وملاحهم قد انتشروا إلى جهات بعيدة من الأرض وإلى بيئات متباينة أشد التباين ، فهم وصلوا قلب آسيا وأطرافها الشرقية ، بل وبلغ تجارهم البر البلطى ، وانتشر ملاحوهم إلى سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج من جهة ، وإلى بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية وبعض شواطئ الصين من جهة أخرى . وفى كل هذه الأصقاع كانوا رسل الثقافة وحمل النور . ولعل العرب من هذه الناحية أن يكونوا أوسع شعوب الأرض اتصالاً ونشراً للثقافة ونور المدنية والحضارة . بل إنهم سبقوا فى سعة الاتصال وفاقوا فى اتساع الانتشار ما بلغه بعض شعوب أوروبا الحديثة بعد ذلك بعدة قرون .

والحق أن العرب أمة كان لها فضل كبير فى الحضارة والمدنية . وهم سلالة الشعوب السامية القديمة ، وورثة ذلك الموقع الجغرافى الفذ فى قلب العالم القديم وهو الموقع الذى اتصلت فيه السلالات من كل الألوان ، وتعلم الإنسان أن يأخذ ويعطى ، وأن يؤثر ويتأثر ، وأن يغدو إنساناً فى حضارة عالمية بالمعنى الكامل الشامل . ولكن المهم بل الطريف أننا إذ ندرس الحضارة العربية نلمس فى يسر أنها رغم اتصالاتها العريضة كانت على الدوام حضارة ظاهرة مميزة ، وقد يكون من الطريف فى هذا المقام أن نسجل عنها بعض الأمور التى ميزت طابعها وأبرزت الدور الحضارى الذى قام به العرب فى صورة واضحة للعالم .

وأول هذه الأمور أن حضارة العرب الإسلامية أفادت من سعة انتشارها ما زاد من قوتها وحيويتها ، وأضاف إلى اتساع أفقها وتنوعها ، فاختلطت حضارة العرب فى أرض الشام بحضارة آرامية قديمة ذات اتصال بحضارة الأغريق وفلسفتهم ، واختلطت فى أرض العراق بحضارة سامية أخرى كانت متأثرة بحضارة الفرس فى مجال المادة ومجال الروح ، كما اختلطت فى مصر وأرض النيل بحضارة عريقة أصيلة كان من حظ أهلها أيضاً أنهم تلقوا حضارة الأغريق وثقافتهم ونتائج فكرهم فاحتضنوه وغدوه وحفظوه للعرب والمستعربين من أبناء الشرق القديم ، الذين ما لبثوا أن غدوا هم ورثة الثقافة الإغريقية ، والقوامين عليها خلال بضعة قرون . وبهذا الاختلاط كله فى أرض الشام والعراق ومصر وكذلك باتصال العرب مع أجزاء أخرى من العالم كفارس وبلاد الهند وشرق إفريقية وشمالها . . . بذلك كله عدت حضارة العرب حضارة عالمية بالمعنى الصحيح ، وخرجت عن نطاقها ومهدتها الضيق إلى العالم القديم بأسره ، واتسمت أوجه الشبه والاتصال بينها وبين حضارات ذلك العالم . وهكذا وجدت طريقاً جديداً إلى الخلود والبقاء ولو فى سورة جديدة تختلف عما كانت عليه صورتها الفطرية فى قلب الجزيرة العربية .

والأمر الثانى الذى يهمنى هو أن الحضارة العربية فى نشأتها الأولى كانت حضارة بسيطة غير مركبة ، وذلك من حيث أسسها المادية ، ونظمها الاجتماعية الصحراوية ، واتجاهات فكرها ونزعاتها الروحية . وهذه البساطة فى حد ذاتها راجعة أيضاً إلى مقومات البيئة الجغرافية والاجتماعية بين الرعاة وحداة الإبل . ولكنها كانت إلى جانب ذلك مصدر قوة فى الحضارة العربية ، لأنها جعلت منها لوناً من الحضارة أو الحياة واضح المعالم محدد الأهداف والغايات قائماً على أساس خضوع الفرد للجماعة واندماجه فيها ، حتى فيما يمس حياته المادية ، فالألم والمروى وغيرهما من مرافق الحياة مثلاً كانت مرافق عامة تملكها القبيلة كلها أو العشيرة المضاربة فى جهة من الجهات ولذلك كانت حياة الفرد من حياة العشيرة ، كما كان دمه من دمها ، بل لذلك فإن الحضارة العربية حملت فى كيائها الأصلى روح الترابط بين الفرد والجماعة ولوناً من ألوان التأخى والتساند والتكافل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا ما جعل منها حضارة عالمية تصلح لأن تنتشر إلى العالم الخارجى ، فتربط بين أطرافه ، ولا تميز بين عربى وغير عربى ، وإنما تشيع فى العالم كله لوناً جديداً من الحضارة الإنسانية ، التى تقوم على أساس الأخوة فى الحياة أو الأخوة فى الثقافة والدين على كل حال .

وأما الأمر الثالث فهو أن البساطة فى حياة العرب وحضارتهم قد ترتب عليها ظهور التجرد من المادة فى كثير من ألوان الفكر العربى ، ولعل خير ما يوضح لنا ذلك أن العرب حتى الآن لا يزالون يمجدون مثلهم العليا فى أمور مجردة غير ملموسة ، فهم يرون القصيدة الشعرية أدق تعبيراً عن معانى الحق والخير والجمال من التمثال المجسم أو البناء المشيد ، وهم كثيراً ما يأخذهم سحر القول بأكثر مما يخلب لهم الزخرف اللغوى .. ولعل العرب أن يفردوا فى ذلك بين غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى .

أما الأمر الرابع والأخير فيتمثل فى صفة لم تكن أقل تميزاً لحضارة العرب وثقافتهم من صفة البساطة ألا وهى الرونة والمقدرة على التجديد وعلى مجازاة الزمن ومجازاة ظروف البيئات المختلفة التى انتشر إليها العرب أو انتشرت ثقافتهم . ومن هذه الناحية ينبغى أن تصحح خطأ شائعاً عن العرب وعن حضارتهم الإسلامية . وذلك أن الاعتقاد السائد بين من يدرسون التاريخ العربى دراسة سطحية هو أن العرب قوم صحراويون ، قد انتشرت ثقافتهم ونجحت على الخصوص فى بيئات الرعاة المائلة للبيئة العربية الأصلية . ولكننا إذا درسنا خريطة العالم وجدنا أن العرب قد انتشروا ونقلوا معهم معالم حضارتهم وثقافتهم إلى بيئات متباينة أشد التباين .. منها أواسط آسيا وشمال أفريقيا وهى أقاليم رعوية ، ومنها مصر وأرض

العراق وهى بيئات زراعية مستقرة ، ومنها بلاد الهند وهى مناطق زراعية أيضاً ولكنها ذات مناخ يختلف تماماً عن البيئة العربية الأصلية ، ثم منها جزر الهند الشرقية التى تقع عند خط الاستواء . وليس فى بيئتها الجغرافية ولا فى تكوين سكانها ونظمهم الاجتماعية ما يشبه من قريب أو بعيد بيئة الصحراء وحياة الرعاة من الأعراب . ولعل هذا كله أن يكون دليل المرونة والمقدرة على التشكل والتطور فى الثقافة العربية بما يجارى البيئة الجديدة . . وذلك ما اكتسبه العرب من بيئتهم الجغرافية وموقع بلادهم الجغرافى ، واحتكاكهم منذ القدم بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب .

تلك خلاصة موجزة عن حضارة العرب ومقوماتها ، ومصادر القوة وعناصر الخلود فيها . لم يكن القصد منها أن نستوفى معالم تلك الحضارة سرداً واستعراضاً ، فهيات أن نستطيع ذلك فى مثل هذا الحديث . ولكنها خلاصة أردنا بها أن نبرز ما فى حضارتنا العربية من قوة ، وما تستند إليه من مقومات ، لم يزدها الزمن إلا رسوخاً ولم تزدها الأيام إلا ثباتاً ، حتى غدت بذلك كله تراثاً خالداً من حقنا أن نفاخر به ، ورسالة تالدة ما أحراها أن تعيش وأن تبقى على مر الأيام .

سليم بن هزيم

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول